﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [فاطر: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من مَظاهر الاستخلافِ إلى حقائقِ الخِلاف

لمّا ذكَرتِ الآيةُ السّابقة أنَّه هو وحدَهُ الَّذي جعل النّاسَ خلائفَ في الأرضِ، المشيرُ إلى أنَّه وحْدَه خالقُهم ورازقُهم، وأنّه وحدَه الحقيقُ بالتّوحيدِ والعبادةِ، ناسبَ أنْ يذكُرَ بعدَ ذلك ما يُحقِّقُ هذا المعنى ويُؤكِّدُه؛ مِن تقريرِ بُطْلان إلهيّة آلهتهم التي يدعونَها مِن دونِ اللّهِ، وقد نُظِم ذلك التّقريرُ على صفةِ الاستفهامِ الّتي تجعلُهم يَعترفونَ بنعمةِ الاستخلافِ، وما يتْبَعُ ذلكَ مِنَ الاعترافِ بالألوهيَّة الحقِّة، والإيمانِ بها[1]، فهو انتقالٌ من بيانِ أثرِ استخلافِ اللّه تعالى للنّاس في الأرضِ، إلى عدميَّة أثَرِ الشُّركاء الَّذين يدعونَهم من دون اللّه، وشتّانَ ما بينَ الخالق والمخلوق، وبين المعبودِ الحقِّ والمعبود الباطل.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: أصلُ (رأى) يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بعَيْنٍ أوْ بَصيرَةٍ، والرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأَمْرِ، وجَمْعُهُ الآراءُ[2]، والرُّؤْيَةُ: إدراكُ المَرْئيُّ، والرَّأْيُ: اعتقاد النَّفسِ أحدَ النَّقيضين عندَ غلبةِ الظَّنِّ، والرُّؤْيا: ما يُرى في المنام[3]، والرُّؤْيَةُ بالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْمِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ، وللنَّحويّين في:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رأى).

(أَرَأَيْتُمْ) الإخباريّةِ خلافٌ بالنِّسبة إلى الفاعل، فهي تفيدُ التَّنبيهَ، وهو تَرْكيبٌ شَهيرُ الاستِعْمالِ، يُفتَتَحُ بمِثْلِه الكَلامُ الَّذي يُرادُ تحقيقُهُ والاهتِمامُ بِهِ[1]، والمقصودُ بالإراءَةِ في الآية: الإخبار؛ لأنّها كَلِمةٌ تُقالُ عندَ الاستِخبارِ، ومَعناها: أَخبِروني عن شُركائِكم[2].

2) ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾: أصلُ (شرك) يَدُلُّ على مُقارَنَةٍ وخِلافِ انفِرادٍ، والشِّرْكَةُ: أن يكونَ الشَّيءُ بين اثْنَيْنِ لا يَنفَرِدُ به أحدُهما[3]، والشَّريكُ: المُشارِك، يُقالُ: شَرِكتُه في الأَمْرِ وشاركتُه: إذا انضممْتُ إليه وخالطتُه، وصِرْتُ شريكًا له[4]، والشِّرك: أن تجْعَلَ للّه شريكًا في رُبوبيَّته تعالى اللّه عنِ الشُّركاءِ والأنداد[5]، والمقصود بالشُّركاء في الآية: جَمْعُ شَريكٍ، وهي الأصنامُ التي أَشركوها في العِبادة، ووُصِفوا بالشُّركاءِ لاعتِقادِ المُخاطَبينَ ذلك؛ ولذلك أُضيفَ إلى ضميرِهم[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من أساليب المُناظَرةِ في القرآن السَّبرُ والتَّقسيم

تُبيِّنُ الآية الكريمة عجْزَ آلهةِ المشركين ونقْصَها، وبُطْلانَ الشِّركِ مِن جميعِ الوُجوهِ، فهي خطابٌ للنّبيِّ ﷺ أنْ يقولَ للمُشركينَ مِن قَومِه: أرأيتُم مَنْ تُشركونَهم مع اللّهِ تعالى؛ فتَدْعونَهم مِن دونِه، أَخبروني عنهم، وأَروني ما الَّذي خلَقوه مِنَ الأرضِ؛ حتَّى استحَقّوا عبادتَكم لهم؟! أم لهم نصيبٌ مع اللّهِ في السَّماواتِ في خَلقِها، أوْ مُلكِها، أو تَدبيرِها؟ أم آتَيْناهم كتابًا فيه ثُبوتُ الشَّركةِ مع اللّهِ؟ فالمُشركونَ على بُرهانٍ وحُجَّةٍ مِن صِحَّةِ ذلك؟! كُلُّ ذلك مُنتَفٍ؛ فلا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 221، و15/ 150.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 691.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيومي، المصباح المنير: (شرك).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (شرك).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 151.

باعِثَ لهم على مَزاعِمِهم الباطِلةِ إلّا خِداعُ بَعضِهم بعضًا بالأمانيِّ الكاذِبةِ، والآراءِ الباطِلةِ، فاتَّبَعوا أهواءَهم بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ الفصلِ بينَ الجُملِ:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ غيرَ مُصدَّر بعاطفٍ؛ إمّا لأنَّه استئنافٌ ابتدائيٌّ في الاحتجاجِ على الكفّار في أمرِ أصنامهم؛ بعد إقامة الحُجّةِ عليهم بجعلِهِم خلائفَ في الأرضِ، ولبيانِ أنَّ إقدامَهم على الكفر لم يقمْ على برهانٍ قاطعٍ ولا دليلٍ دامغٍ، وهذا هو الرّاجحُ لاختلاف الجُملتينِ في الإنشاءِ والإخبارِ، وإمّا لأنّه بيانٌ وتوكيد للآية السّابقة، فهو من كمال الاتِّصال؛ بمُلاحَظةِ المعنى فيهما، وأنَّ معنَى الثّانيةِ يقرِّرُ معنى الأولى ويؤكِّدُه، وفي الثّانية تفصيلٌ لكُفرهم، وبيانٌ لتضييعِهِم نعمةَ الاستخلافِ، وأنَّهم رتَّبوا عليها عبادةَ ما لا ينفعُ ولا يضرُّ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ.

تضييعُ نعمةِ الاستخلافِ في المُناداةِ على نِقمةِ الشّرك

بلاغةُ الأمرِ وغرضُهُ:

خطابُ الأمر في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ لنبيّنا محمّد ﷺ؛ ليُخاطِبَ أهلَ الكفرِ محتجًّا عليهم، أدلُّ على عِظَم الاحتجاج وفخامتِه، وأبلغُ في إقامة الحُجّة عليهم؛ لأنّه يَستحضرُ دعوتَه ﷺ إيّاهُم إلى الحقِّ، وتبيينَه لهم؛ بما لا يبقَى معَه نوعُ شُبْهَةٍ لهم تجعلُهُم يدعونَ غيرَ اللّهِ؛ ففي الأمرِ تبكيتٌ لأهل الكفرِ[2]، وهو يُذكِّرُهم بأنَّه ﷺ لا يزالُ حاضرًا فيهم؛ فليُسْرِعوا في التّوبة مِمّا هم فيه، والاقتداءِ به، مع الإشعار "بأهميّة المقولِ، وكونِه رسالةً خاصّةً يجبُ الاعتناءُ بها، وتبليغُها فورَ تلقّيها، ومواجهةِ مَن كان مقصودًا بها؛ وهم – هنا –

من ضيَّع الرَّحمةَ حالَ وجودِها نَدِمَ ساعةَ احتياجِها

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 390، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 356، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 557، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 691.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 480، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 22.

عبدةُ الأصنام"[1]، كما يحملُ توجيهُ الأمر له ﷺ تعظيمًا لشأنِ هذا الرّسول الأكرم، الّذي كان واسطةً في تبليغِ ما يريدُه اللّه منهم، مع أنَّ الخطاب مِن خطابِ عمومِ الشُّمول، الّذي يرادُ به كلُّ مَن يتأتَّى منه القولُ، ففي ضميرِ الفاعل مجازٌ؛ إذ ذُكر الضّميرُ وأريدَ به العموم، وكأنَّه إذا قالَ النّبيُّ قالت أمّتُهُ وأتباعه، وأنَّه لا ينبغي أنْ يَتخلّفَ أحدٌ عنِ الدَّعوة إلى الدّين الحقِّ.

بلاغةُ الاستفهام وغرضُهُ:

تـقـريـرُ أهـلِ الباطلِ توطئةٌ لبلوغِ الحقِّ

الهمزةُ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ للاستفهام، وهي أتتْ لغرضِ التّقرير والإلجاءِ إلى الاعتراف، والمعنى: إنْ كنتُم رأيتُم شركاءَكم منَ الأصنامِ فلا سبيلَ لكم إلّا الإقرارُ بأنَّهم لم يخلقوا شيئًا؛ لأنَّ المُسْتَفْهَمَ عن رؤيتِه هنا واضِحٌ بادٍ، وفائدةُ الاستفهام أنْ يكون توطئةً لكلامٍ يأتي بعدَه يكونُ كالدّليلِ عليه، أوِ الإيضاحِ له؛ فيؤولُ معناه بما يتّصلُ به مِن كلامٍ بعدَه؛ ففي قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ تمهيدٌ لأنْ يُطلَبَ منهمُ الإخبارُ عن شيءٍ خلقَه شركاؤُهم، فصار معنى: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾: انظُروا ما تُخبرونَني به مِن أحوالِ خَلْقِهم شيئًا مِنَ الأرض[2]، فالتّقريرُ ناظرٌ إلى عَلاقَة جملةِ الهمزة بما هو بعدَها في الآية مع التّنبيه؛ فالاستفهامُ دعوةٌ إلى التّفكيرِ في حالِ الأصنامِ الّتي يَعبدونها مِن دون اللّه تعالى، ليَنتهوا بعدَ النّظر والتّأمُّل إلى أنَّها لا تستحقُّ العبادة والتقديسَ.

نكتةُ استعمالِ مفردة الرُّؤية:

إبـصـارُ الإلـه في الدُّنيا من أدلّة بُطلانِ ألوهيّتِه

(الرُّؤية) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ بصريَّةٌ؛ لأنَّ المُسْتَفْهَمَ عن رؤيتِه في مِثْل هذا التّركيبِ في الاستعمال هو أحوالُ المرئيِّ، وإناطةُ البصر بها، أي: أنَّ أمرَ المُسْتَفْهَم عنه واضِحٌ بادٍ لكلِّ مَن

(1) عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 324.

يراهُ، والغرضُ إحضارُه في الذِّهنِ بقوّةٍ؛ للاقتناع بما سُيُحْكَم عليه به؛ بعدَ التّفكيرِ في ذلك الحكم[1]، وفي جعل الشُّركاء في مَرمى الرُّؤيةِ تنبيهٌ على الامتهان والحقارة بحيثُ يراهم كلُّ مَن يقصدُ رؤيتَهم، ويعلمُ أنّه لا خَلْقَ لهم، واللّهُ تعالى بخلاف ذلك في كلٍّ مِنَ الأمريْنِ؛ فهو مُحْتجِبٌ بحجاب الجلال والعِزّ، وكلُّ أحدٍ يعلمُ أنَّه الخالقُ لكلِّ مخلوقٍ، فكيف يكون مَن لا يخلُقُ كمَن يخلقُ؟![2]، كما أفادَ فعلُ الرّؤيةِ البصريّة أنَّ مجرَّد الرّؤيةِ للشُّرَكاء كافٍ للحُكم بعدم ضرِّها ونفعِها لعدمِ خالقيّتِها لشيء، فلا حاجةَ لمزيدِ تأمُّلٍ وتفكير، وفي إسنادِ فعل الرّؤيةِ إلى جميعِ المخاطَبينَ ما يدلُّ على تكاتُفِهم في الاعتقادِ الباطل واجتماعِهم عليه، بقي أنَّه إذا أُريد بالرُّؤيةِ الإخبارُ والإعلامُ؛ فيكون هنالك مجازٌ مرسَلٌ علاقتُه السّببيّةُ؛ إذِ الرُّؤيةُ سببٌ للإخبار عن علْمٍ ويقين.

نكتةُ استعمالِ مفردةِ الشّركاء:

الشِّركُ اختراعٌ ضعيفٌ يُنبئُ عن احتيالٍ عظيم

المرادُ بالشُّركاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ مَن زعمَه الكفارُ شركاءَ للّه في الإلهيَّة؛ فالمرادُ أنّ حقَّ الإلهيّة في التّشريعِ والأمرِ والنَّهي يشتركُ فيه اللّه ﷻ صاحبُ الحقّ المُطلق، وهولاء الشُّركاءُ المزعومونَ ممّن اخترعَهم وجعلَهم - وهمًا وخيالًا - يُشرِّعون من دون اللّه تعالى، فالشُّركاء هم في وهم غالبِ المُشركين، وفي احتيالِ بعضِ سادتِهم، كما أنَّ الشّركة والشّراكة تومئُ إلى الاحتياج والافتقار، ومِن شأن الإله الحقِّ أنْ يكون غنيًّا عنِ الشَّريك والمُعاون له في الخالقيَّة، ومجرّدُ إثباتِ الشّرك إبطالٌ لألوهيّةِ كلِّ المعبودات، فمَن كان متّصفًا بالشّراكة في جنابِ الألوهيّة لن يكون إلهًا حقًّا لافتقاره، وبهذا تتضمّنُ لفظةُ (الشّرك) دليلَ الإبطال لها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 324، وعبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 233.

دلالة جمع (شركاء):

الآلهةُ مزعومةٌ والأمرُ لأربابِ المُشركين

جاء التَّعبير بصيغةِ الجمع عنِ (الشّركاء) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾؛ ليكونَ أدلَّ على تقرير المقصودِ؛ مِن بيانِ عجزِ آلهتهم، وبطلانِ القولِ بألوهيَّتِها، فمهما تعدَّدتِ الآلهةُ المزعومة فهي باطلةٌ؛ لأنَّ تعدُّدَ الإله يستلزمُ الاحتياجَ والافتقارَ، وفيها فائدةُ أنَّ المشركينَ كانت عندهم آلهةٌ متعدِّدة، ولم يكن عندَهم إلهٌ واحد، ففيه بيانُ الاختلاف والنِّزاع، وأنَّهم كَذَبةٌ فيما يزعمونَ، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: 29]، وواقعُ المشركين أنَّ النّزاع بينهم لم يكن ظاهرًا، وذلك لاتِّفاقِ أربابِ المشركين على الباطل، فاجتماعُهم على الباطل باتِّفاقٍ، لا على آلهة مزعومةٍ متخيَّلةٍ، كما أفادَ الجمعُ الاستخفافَ بعقولهم، التي ذهبتْ إلى تعدادِ الإلهِ تعدُّدًا خارجًا عن حدود الفطرةِ والعقلِ السَّليم.

نكتةُ الإضافةِ ودلالتُها:

الأصنامُ خادمةٌ للمصالحِ ومحقِّقةٌ للمطالب

آثرَ النّظمُ الكريم إضافةَ الشُّركاء إلى ضمير المخاطَبين دون الاسم الظاهر، فلم يقل: (أرأيتم الشّركاء)؛ على معنى: الذين جعلتموهم شركائي، أو شركاء لله؛ وذلك لأنَّهم همُ الذين جعلوهم شركاءَ لله، فليس للأصنام شركةٌ بوجهٍ إلّا بقولهم، فالواجبُ إضافتُها إليهم[1]، والإضافة بمعنى (من) أي: شركاء منكم، أو (اللام) أي: شركاء لكم، وعلى المعنيَين؛ فإنَّهم مصدرُ أولئك الأصنام، وهم يخدمونَ مصالحَهم، ويسعَون في استقرارِ حُكمهم، مع ما في الإضافة على كلِّ حالٍ من معنى التَّهكّم بهم والسُّخريةِ منهم[2].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 442، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 48، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 324.

(2) عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.

علّةُ التّعبير بالموصول:

حـالُ البـاطـلِ كـافٍ في الدّلالةِ على حقيقتِه

أوثِر استعمالُ الموصول وصلتِه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دونَ أنْ يقال: (أرأيتم شركاءكم الدّاعين لهم من دون الله)؛ للتّنبيه على الخطأ في تلك الدَّعْوة، والتّشنيعِ عليهم بها، ورميِهم بالسَّفَه مِن أجلها، وهي بيانٌ لعَدِّ الكفّارِ الأصنامَ شركاءَ للّه، ويؤيدُ ذلك قولُه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فإنَّ عجْزَ الأصنام عنِ الخلْقِ مِن شأنه أنْ يكون قرينةً على كون الصِّلة للتّنبيهِ على خطأ المُخاطَبين[1]، كما أفادَ الموصول توضيحَ الشُّركاء؛ لوقوعِه نعتًا لهم، وأنّ المقصودَ بهم الشّركاءُ في الدّعوة والعبادة مع اللّه تعالى، وليسوا شركاءَ العمل وغيرِه، بقي أنَّ إيرادَ الموصول جمعًا للعاقل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع أنَّ الأصنام غيرُ عاقلة؛ لبيان أنَّ دعاءَهم لها وطلبَهم منها يستلزمُ أن تكون عاقلةً سامعة، وفي ذلك نعيٌ عليهم أنَّهم يدعونَ آلهةً نزّلوها منزلةَ مَن يسمعُ ويعقلُ مع أنَّها لا تسمعُ ولا تُبصِرُ ولا تَعقِل.

نكتةُ استعمالِ مُفردة الدُّعاءِ:

مَن دعا معبودَه فلينتظرْ نَصْرَه وإعانتَه

المقصودُ بالدُّعاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دعاءُ السُّؤالِ والاستغاثة، الدّالُّ على اعتقادِ الدّاعي الألوهيَّةَ فيمَن يَدعوه؛ ولذلك يُفسَّرُ هذا الفعلُ بالعبادةِ؛ وإنّما استعملَهُ النّظمُ في هذه الآية دونَ العبادة؛ لبيانِ عظيمِ جَهلِهم وقبيحِ اعتقادِهم؛ ببيانِ عظيمِ رَغبتهم في عبادةِ تلك الأصنام، وإقبالِهم بكليّاتهم عليها مِن جهةٍ، وبيانِ أنَّ عليهم أنْ يسألوها ويَستغيثوا بها؛ إذا مسَّهم ضرٌّ؛ فهل تستجيبُ لهم؟ وهل يكون منها دفعُ ضررٍ، أوْ جلبُ نفعٍ لهم؟ ففيه تنبيهُهُم على خطئِهم بالواقعِ المشهود المُبصَر، فمَن دعا معبودَه فعليه أن ينتظرَ نتائجَ مُعتقده وفكرِه، وفي الفعل إشارةٌ إلى أنّ الإله الحقَّ هو الذي يُتوجّهُ له بالدُّعاء والسُّؤال، ويستجيبُ لهم ويُحقّقُ مطلوبهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 324 - 325.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ المُضارعِ:

المـأفـونُ بـاقٍ في ضلاله مُستعرٌ في نارِه

جاء التّعبير بصيغةِ المضارع لفعلِ الدّعاء من دون الله في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دون الماضي مع تحقُّقِ وقوعه؛ لتصويرِ عظيم ضلالِهم؛ باستمرارهم على الكفر، وبقائِهم عليه، وأنَّ عبادتهم الأصنامَ لا تختصُّ بوقت دون وقتٍ، بل هي تحدثُ وتتكرّرُ؛ بتَكرارِ موجباتها[1]، ممّا يُنبئُ عن مُلازمتهم الاعتكافَ لها والخضوعَ أمامها عند الدُّعاء والطَّلب منها، وفي ذلك تهكُّمٌ بهم واستخفافٌ؛ إذ دأبوا على الباطل حتى صار عمَلًا متكرّرًا، واستحضارُ صورةِ ما وقعَ التّهكُّمُ به وكأنّه يجري الآن أكثرَ تهكُّمًا وسخريةً ممّا آلَ إليه أمرُهم.

نكتةُ حذفِ المفعول:

الـجـمـعُ بـيـنَ الـتّـحـذيـرِ مِـنَ الخطأ، والتّنبيهِ على الصّوابِ

فعلُ الدُّعاءِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جاءَ محذوفَ المفعول وهو متعدٍّ، فلم يقل: (الذين تدعونهم)، وذلك لإرشادهم إلى ما ينبغي أنْ يترتَّبَ على حِجاجِهم؛ مِن تركِ دعوة الأصنام مِن دونِ الله، وحسَّنَ الحذفَ العلمُ بالمحذوفِ مِنَ السّياق، مع ما فيه منَ التَّهكُّم بالمحذوفِ، والسُّخريّةِ منه؛ لإفادتِه أنّ هاتيك الأصنامَ إنَّما تُعْرَف بدعاءِ هؤلاءِ إيّاها، فلا حاجةَ مع ذلك إلى ذكرِها.

نكتةُ تقييدِ الحالِ المحذوفةِ:

مَن تأمَّلَ في حالِ الـشّيءِ أحسَنَ في الحُكْمِ عليه

قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قيدٌ وقَع متعلِّقًا بمحذوفٍ؛ هو حالٌ مِنَ العائد المُقدَّرِ، أي: الذين تدعونهم حالَ كوْنِ دعائِكم إيّاهم مِن دون الله تعالى، ونظمُه حالًا؛ للاسترشاد بحالِ الأصنامِ على حقيقتها؛ فإنَّ حالَها دليلٌ على بطلانِ ألوهيَّتها، وداعٍ إلى الاستغرابِ والتَّعجُّبِ مِن عبادتها مِن دون الله.

(1) عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.

بلاغةُ ألفاظِ القيد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

التَّقابُلُ بينَ الأشياءِ دعوةٌ للتّفكيرِ فيها لبلوغِ حقيقةِ ما فيها

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: ابتدائيٌّ، ولمّا كانَ الغرضُ مِنَ القيد المتعلِّق بالحالِ؛ الدّعوةَ إلى المقارنةِ بينَ حال آلهتهم وشأنِ اللّه في الكونِ؛ تمهيدًا لتلقّي باقي الآية؛ عُبِّر بما يَهْديهم إلى حقيقةِ أصنامِهم؛ وهو كلمةُ ﴿دُونِ﴾؛ فهي هيِّنةٌ حقيرةُ القيمةِ، وذلك موطنُ التَّعجُّبِ مِن عبادتها، واستُعمل لفظُ الجلالة الذي هو نَصٌّ في الإلهيَّةِ، وله جميعُ صفاتِ الكمالِ؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ إثباتُ الإلهيَّة له، ونفيُها عنِ الأصنام، وبالتَّقابُلِ بينَ حالِ الأصنامِ وشأنِ اللّه في الكونِ تظهرُ لهم حقيقةُ الإله الحقِّ.

علَّةُ فصلِ الجملة:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ عن جملة ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾؛ لأنَّه بدلُ اشتمالٍ، أوْ بدلُ مُفصَّلٍ مِن مُجْمَلٍ[1]، والغرضُ منَ الإبدال بيانُ عجزِ تلك الآلهةِ المزعومةِ عنِ الخلق بعدَ أنْ ثبتَ كونُها غيرَ مُستحقّةٍ للدُّعاء لمَن تأمّلَ حقيقتَها، وأنَّ مجرّدَ اعتقادِ الشّريك في الألوهيَّة إبطالٌ لها من أصلِها؛ إذ شأنُ الإلهِ الحقِّ الاستغناءُ عنِ الشَّريك والشَّراكة في الأمر والمُلك والخَلق.

سِرُّ التّعبيرِ بلفظ الرّؤية:

تقوى الحُجَجُ بطريقِ المُشاهَدةِ

لا يُرادُ بالرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ حقيقتُها؛ لأنَّه لا يتأتَّى لهم ذلك، فكان ذلك قرينةً على أنَّ الرّؤيةَ مجازٌ مُرْسَلٌ في الإعلام أوِ الإنباء؛ عَلاقَتُه السّببيّةُ، والمعنى: أعلموني أوْ أنبئوني شيئًا مخلوقًا للَّذين تدعونَ مِن دون اللّه في الأرضِ[2]، وفضلُ المجازِ يتمثّلُ في الإبلاغِ في بيانِ عدم استطاعةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 480، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 324.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 325، وجعله الدكتور عبد العظيم المطعني مِن باب الاستعارة، وهو غيرُ مستساغٍ، ينظر: عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.

الأصنام أنْ تكونَ قد خلقت شيئًا مِنَ الأرضِ؛ لأنَّ الإبصارَ أبلغُ مِنَ السّماع، ويحتمل أنَّ الإراءة تضمّنتِ الإخبارَ والإعلام؛ لتدلَّ على الإخبارِ المُقترنِ بالإراءة لتعجيزِ المخاطَبِ والاستخفافِ بعقله في عبادةِ مَن هو عاجزٌ عنِ الخلق؛ إذ لا يقدرُ على ذكرِ مخلوقٍ صنعَهُ الشّريك، لتتسنَّى رؤيتُهُ والعلمُ به ومعرفتُه، وما ذاك إلّا دليلُ عدمِ الشَّريك أصلًا؛ لأنَّ مِن شأن الشّريك الفعلَ والإيجاد.

وفي استعمالِ فعلِ الرّؤية مرّتين في الآية إشارةٌ إلى أهمّية الدّليل القطعيِّ المُثبتِ صحّةَ الشّركاء الَّذي يصلُ بسامعه مِن قطعيّته إلى الرُّؤية وليس العلْمَ فقط، ومن ثمَّ يحتملُ أن يكونَ المجاز في: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى﴾ استعاريًّا بتشبيهِ العلْم بالرّؤية؛ ثمَّ حذفَ المشبّه وأبقى المشبَّه به على سبيل الاستعارة التّصريحيَّة.

غرضُ الأمر وغايتُه:

عـنـدَ الـتّـحـدّي تظهرُ الحقائقُ

فعلُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوٓاْ﴾ ليس على ظاهره؛ لأنَّ آلهتهم لم تخلُق شيئًا؛ فلن يستطيعوا أنْ يُعلموا أوْ يُنبئوا أحدًا بعكسِ ذلك، ولا أنْ يُروه ضدَّ ذلك؛ فكانَ الغرضُ منه إيقافَهُم على عجزِ آلهتهم عنِ الخلْقِ؛ بتعجيزِهم وإفحامِهم هُمْ، أي: أنَّ الأمرَ تعجيزٌ للتّبيين، والمعنى: أعلِمتم هذه الّتي تدعونها ما هي، وعلى ما هيَ عليه مِنَ العجز؟[1].

بلاغةُ الاستفهام وغرضُه:

ما بعدَ الجوابِ إلّا بلوغُ المأمول وتحقيقُ المطلوب

كلمةُ: ﴿مَاذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُوٓاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ مركّبةٌ مِن (ما) الاستفهاميَّة، و(ذا) التي بمعنى: الذي؛ حين تقَع بعدَ اسم استفهام، وفعلُ الإراءة مُعلَّقٌ عنِ العمل في المفعول الثّاني

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 203، وينظر: عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.

والثّالث بالاستفهام، والتّقديرُ: أروني شيئًا خلقوه مِمّا في الأرض[1]، وغرضُ الاستفهام الإنكارُ والتّوقيفُ والتّبكيتُ والتّنديم والإفحام[2]، وفَضْلُ إفادةِ ذلك بالاستفهام على إفادته بمعانٍ صريحةٍ: الإيجازُ، وهو سخيٌّ كما ترى، وهو مِن نوعِ إيجاز القِصَر، وحثُّ المُتلقّي على التّفكيرِ في المعنى؛ كأنَّ السّؤالَ على ظاهرِه؛ لأنَّ مَحْضَ الاستفهامِ أنْ يتنبَّهَ السّامعُ؛ ليرجِعَ إلى نفسِه، فإذا رجَع إليها، وفكّر في المعنى: نطَق داخلُه بمعاني الاستفهامِ؛ فكان مقتنعًا به، فتكونُ الحُجّة قد قامتْ عليه.

دلالةُ اسْتعمالِ مُفرَدة الخلقِ مادّةً وصيغةً:

المُطالبةُ بخلْقِ الأصنام إثباتٌ لبُطلان عبادتِهم وإحقاقٌ لعبادة الله وحدَه

جاء استعمالُ مفردةِ (الخَلْقِ) في قولِه تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لتحريكِ الأذهانِ في شأنِ الأَصنام، فإنَّ مسألةَ الخلقِ من أكثر المسائلِ إحراجًا للعابد، وهي القضيّةُ التي يُستدلُّ بها على صحَّة عبادة المعبود الحقّ، فهي من جهةٍ إبطالٌ لعبادةِ الأصنام، ومن جهةٍ أخرى إحقاقٌ للحقِّ في عبادةِ اللّه تعالى وحدَه دون سواه، وجاءَ التّعبير بالفعل الماضي؛ لأنّ المقصودَ لا يتعلَّقُ بحالِ الخلْقِ فيما يكونُ وما بعدَه، بل فيما قد كانَ وما ظهرَ للعيان؛ ليظهر تمامُ عجزِ الأصنام عن الخلْقِ.

لطيفةُ إسنادِ فعل (خلقَ) إلى الضَّمير:

يُنزَّلُ غيرُ العاقلِ منزلةَ العاقلِ؛ لغرضٍ

الأكملُ والأتمُّ في كشْفِ حقيقةِ عجْز الأصنام عنِ الخلْقِ إسنادُ الخلْق إلى الجميع؛ فقد جرى الكلامُ في الآيةِ على استحضارِ جميعِ ما يدعوه الكفّار مِن دونِ اللّهِ؛ لأنَّ بيانَ عجزِ الجميعِ أبلغُ مِن بيانِ عجزِ البعضِ، والاستدلالِ به على عَجْزِ الآخَرينَ، ومِن إفادةِ استواءِ الجميعِ في العَجْز؛ إذا أُسْنِد الفعلُ إلى واحدٍ، وهذا كلُّه مؤسَّسٌ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 325.
(2) عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.

اصطفاء الجمع (شركاء)، ثم لمّا كان الخلْقُ بمعنى الإيجادِ مِن شأنِ العُقَلاء عُبِّر عنِ الأصنامِ بضميرِ الفاعِلينَ العُقلاءِ، وهو واوُ الجماعةِ، وفي جعلِهم عقلاءَ تهكُّمٌ بهِم مِن جهةٍ، وتنزُّلٌ معَهم في المخاصَمة والمُناظرة ليتبيّنَ لهم عجزُهم، وذلك العجزُ دليلُ عدمِ العقل والسَّمع والنّفع والضّرِّ.

بلاغةُ قيدِ الجارّ والمجرور:

تحديدُ المطلوب تقييدٌ للخَصْمِ عند التَّحدّي

الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ قيدٌ لفعلِ الخلْقِ، و﴿مِنَ﴾ ابتدائيَّة، أي: شيئًا ناشئًا مِنَ الأرض، أوْ تبعيضيَّةٌ؛ على أنَّ المرادَ بالأرضِ ما عليها؛ كإطلاق القريةِ على سُكّانها في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82][1]، و(أل) في لفظِ: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهد العلْميّ، أي: الأرضِ التي تعيشونَ عليها، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ خلقَ الإنسانِ منَ الأرض، وأنَّ اللّه تعالى أوجدَ الإنسانَ من ترابِ هذه الأرض، وجعلَهم خلائفَ في الأرض التي خُلقوا منها، وفي ذلك تبكيتٌ لهم وإفحامٌ؛ إذ كانَ ينبغي لهم أنْ يَدَعوا الَّذي خلقَ خلقَهم منَ الأرض ولا يُشركوا به شيئًا.

معنى ﴿أَمۡ﴾ وغرضُ الاستفهام:

التَّدرّجُ في الإنكارِ على المُشركين يزيدُ في قوّة اليقين

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ﴾ مُنقطعةٌ للإضرابِ الانتقاليّ؛ وهي تُؤذِن باستفهامٍ بعدَها، على تقديرِ همزةِ استفهام، والمعنى: بل ألهم شركٌ في السَّماوات[2]، وغرضُ الاستفهامِ التَّقريرُ على أنْ ليس لهم حصّةٌ ونصيبٌ في السَّماء، أوِ الإنكارُ على مَن يعتقدُ أحقيّةَ الأصنام بالمذكور، والفرقُ بين الاستفهام هنا والواردِ في قولِه تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ معانيَ الاستفهام الثّاني أعلى وأشدُّ في أنفُسِها مِن معاني الاستفهام الأوّلِ؛ لأنّ المُسْتَفْهَم عنه هنا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 325.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 325.

أنَّ لهُم شركًا مع اللهِ في مُلك السَّماوات، وتصريفِ أحوالهما؛ كسيرِ الكواكب، وتعاقُبِ اللَّيلِ والنّهارِ، وتسخيرِ الرّياحِ، وإنزالِ المطر[1].

نكتةُ التّدرّجِ في ذكر الاستفهام بعدَ الاستفهام:

مُـراعـاةُ حـالِ المُخـاطَـبـين في الحِجاج حِكْمةٌ مَـزعيَّة وإقـنـاعٌ حكيم

لَمّا كان المشركونَ في غايةِ الإقبالِ على عبادةِ الأصنام ودُعائها من دون اللّه، وغايةِ الانصرافِ عنِ التّوحيد، فكانوا راسخينَ في الكُفر عَريقينَ فيه أُقيمَتِ الحُجَّةُ عليهم في بطلانِ أمر أصنامهم على جهة التَّرَقّي؛ لأنَّ عجزَ الأصنامِ عن أنْ تُثْبِتَ شيئًا لها في السَّماوات أشدُّ وأعظمُ مِن عَجْزها عن أنْ تُثبِتَ شيئًا لها في الأرض، فكانَ الاستفهامُ الثّاني أعلى مِنَ الأوّل، ومؤكِّدًا للأوّل؛ لأنّه يلزمُ منه مِن باب أَوْلى، فوسَّع القرآنُ لهم في المُحالِ؛ زيادةً في تبكيتِهم على ما هم فيه مِنَ الضّلالِ[2].

وتقديمُ: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هو الأصلُ؛ لأنَّ السَّماوات لا تخْطُرُ ببال المشركينَ أنَّ للأصنام تصرُّفًا في شؤونها، فجاء قولُه: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَجيءَ تكملةِ الدّليلِ على الفرْضِ والاحتمالِ، وقد كانوا ينسبونَ للأصنام بنوَّةً للّه؛ فمِن أجلِ ذلك جيءَ في جانبِ الاستدلال على انتفاءِ تأثيرِ الأصنام في العوالم السَّماويَّة بإبطال أنْ يكون لها شركٌ في السَّماوات؛ لأنّهم لا يَدَّعونَ لها في مَزاعِمِهم أكثرَ مِن ذلكَ[3].

معنى (اللّام) ونكتةُ تقديمِ الجارّ والمجرور:

ادِّعـاءُ الألوهيَّة للأصنام ادِّعـاءُ باطلِ الأَوهام

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ شِرْكٌ﴾ للاختصاص، وقُدِّم ذكرُ الجارِّ والمجرور المتعلِّقين بمحذوفٍ؛ هو خبرٌ على ﴿شِرْكٌ﴾ الذي هو مبتدأ؛ لقصر المؤخَّر على المُقَدَّمِ؛ قصرَ صفةٍ على موصوفٍ؛ قصرًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 325.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 233.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 326.

إضافيًّا قلبيًّا؛ لأنَّ معنى الجملةِ محلُّ إنكارٍ، ودعاؤُهم الأصنامَ مِن دون الله يُنزِّلُهم منزلةَ مَن يدَّعي مِثْلَ هذا القَصْرِ.

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿شِرْكُ﴾:

التّـنـزُّلُ مع الـخَـصْـم من منهجِ القرآنِ في إثباتِ الحقائق

لّما كان المشركونَ قد أثبتوا بدعائِهم الأصنامَ مِن دون الله أنَّ الإلهيَّة شيءٌ مُشتركٌ بينَ آلهتهم وبينَ الله ﷻ، وأنَّ أحدَ الطَّرفيْنِ لا ينفردُ به؛ كانَ مِن لوازمِ ذلك أنَّ هذه الآلهةَ تشاركُ الله تعالى فيما خلقَه، والألصقُ بهذا المعنى لفظُ ﴿شِرْكُ﴾ المعبّرُ به في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ "والشِّرك بكسر الشّين: اسمٌ للنَّصيب المشترَك به في ملك شيءٍ"[1].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿شِرْكُ﴾ وتذكيرِه:

التَّنبيهُ على نفيِ الأعـلى بـنَـفْـيِ الأدنى

لّما كانَ عجزُ الأصنامِ عن أنْ يكونَ لهم نصيبٌ في السَّماوات أشدَّ مِن عجْزهم عن ذلك في الأرضِ؛ كان تنكيرُ لفظِ ﴿شِرْكُ﴾ الوارد في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لغرضِ العموم والتّقليلِ، والمعنى: أم لهم شركٌ في السَّماوات؛ ولو كان قليلًا؟ والتّحدّي والإفحامُ على هذا أعلى وأبلغُ[2].

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيّة:

جاءَ استعمالُ حرف الظّرفيّة في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لزيادة معنى العُموم والشّيوع، والدّعوةِ إلى الذّهاب في تأمُّل السّماء، كأنَّه قيل: انظروا في السَّماء، ونلحظُ تناسبًا توزيعيًّا بين (مِن وفي) واحتباكًا في قوله: ﴿خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ إذِ الخلقُ والإيجادُ يكون منَ الأرض فتتحقّقُ الشِّركةُ في الخالقيَّة، والشِّركُ والنَّصيب في السَّماء فتتحقّقُ الخالقيّةُ لبعضها، فذكرَ في الأوَّل ﴿خَلَقُوا۟﴾ وحذفَه منَ الثّاني، وذكرَ الشِّرك والنّصيبَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 325.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 233.

في الثّاني وحذفَهُ منَ الأوّل، ومَن عجزَ عنِ الخلقِ في الأرض والسَّماء بطلتْ ألوهيّتُه فيهما.

معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجمعِها:

ورد لفظُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ معرَّفًا بأل في قوله: ﴿لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ للدّلالة على ما يعهدُهُ المخاطَبون في أذهانهم مِن هذه السَّماوات السَّبع؛ فهم على علْمٍ بأنَّها سماواتٌ سبع؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾ [العنكبوت: 61]، وعُبِّر بالجمع: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ دون المفرد السَّماء؛ إبلاغًا في التّرقّي في الحِجاج؛ فلم ينتقلِ الحِجاجُ مِنَ الأرضِ إلى السَّماءِ، بل مِنَ الأرضِ إلى السَّماواتِ؛ لأنَّ مَن له شركٌ في سماءٍ واحدةٍ مِنْهُنَّ كان له شركٌ في سائرِها مِن بابٍ أَوْلَى؛ لأنَّهُنَّ جميعًا يَسكُنُهنّ مخلوقاتٌ كثيرةٌ.

التّرقّي في الحِجاج مدعاةٌ لقهرِ الخصم والغلَبةِ عليه

سرُّ المغايرة بين الفعليّة والاسميّة:

لمّا جاء الاستفهامُ عن قدرةِ الآلهةِ خلقَ شيءٍ مِن الأرضِ جاءَ في جملةٍ فعليّة: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ الخلْق وقعَ ووُجِد؛ وجاء الاستفهام عن وجودِ شِركٍ في السَّماوات بالاسميّة: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ وجودَ الشّرك على افتراضِهِ يجبُ أن يكون ثابتًا مُستقِرًّا؛ فلمّا نفاه وأنكره بالاستفهام، نفى لازمَهُ وهو أن يكونَ ثابتًا، فجاء التّعبيرُ عن كلٍّ معنًى بما يُناسبُه.

موافقةُ صورةِ اللّفظ لمعناه تمكينٌ للمَعنى

بديعُ فنِّ الطِّباق:

الطِّباقُ بين ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هو نتاجُ حركة معنى الحِجاج؛ وهو داعٍ إلى النّظر في كلٍّ مِنَ الطّرفيْنِ في نورِ حالِ الآخَرِ؛ فتتمكَّنُ المعاني في النَّفس، ويوقعُ هذا الطِّباقُ في نفسِ المُتلقّي أنْ لا شيءَ

في الطِّباقِ دعوةٌ للنَّظرِ في الكون كلِّه

في الكونِ يشهدُ بإلهيّة الأصنام، وإنَّما يشهدُ كلُّ الكونِ بإلهيَّةِ الله سبحانه وبحمدِهِ.

غرضُ الاستفهام بـ﴿أَمْ﴾:

توبيخُ المشركينَ إنصافٌ لحقيقةِ الدّين

﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾: منقطعةٌ بمعنى (بل والهمزة)، أي: أآتاهم الله كتابًا مِن عندِه فيه ما يزعمونَ مِن إلهيَّة أصنامِهم وخلقِهم منَ الأرض وشركهم في السَّماوات؟ وغرضُ الاستفهام هنا كالمتقدِّم مِنَ الاستفهامَيْنِ السّابقيْنِ، ومعاني الاستفهام هنا أشدُّ وأعلى مِن معانيه في الاستفهامَيْنِ السّابقيْنِ؛ لأنَّ في تعبيرِ الاستفهام ما يُفْهِمُ غضبَ ذي الجلالِ سُبحانه، وغرضُ الاستفهام الإنكارُ، والتَّعجُّبُ، والتّحقيرُ، والتَّوبيخُ.

نكتةُ استعمالِ مُفردةِ (الإيتاءِ):

التَّهكُّمُ بالجهلةِ المُعاندينَ مِن وسائلِ ردْعِ سوادِ المُقلِّدين

استعملَ النَّظمُ الكريم مفردةَ (الإيتاءِ) في قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ دون (الإعطاء)؛ لأنَّ في مادّة هذه الكلمة معنى النَّفاذ والسُّهولةِ، وكلمةُ الإعطاء مدارُها على الأخْذِ والمُناوَلَةِ[1]؛ فتكونُ الكلمةُ مُشيرةً إلى معنى التّمكينِ مِنَ الحُجَّةِ التي في هذا الكتابِ، والتي جعلَتْهم يُقْبِلون على دعاءِ الأصنام وعبادتِها، وهي الأنسبُ في سياقِ الرّدِّ على بُهتانهم بما تُضفيه من معنى التّهكُّم؛ فهم لا يعرفون الكتابَ، ولم يجرِ على أيديهم.

دلالةُ الإسنادِ إلى ضمير العظمة:

أُسند فعلُ الإيتاء إلى ضميرِ العظمةِ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: للدّلالةِ على الغضبِ الشّديدِ، أي: أنَّ عظمةَ الألوهيَّة تأبَى ذلك الإيتاءَ[2].

نكتةُ الالتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغيبةِ:

الإعـراضُ عـنِ المشركين ترقٍّ في تبويرِ شُبهاتِهم

في قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: التفاتٌ مِنَ الخطابِ إلى الغيبة؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أتى).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 233.

على أن يكون الضّميرُ للمشركين، أمّا على جعله للأصنام فلا التفاتَ، والأوَّلُ هو الأظهرُ؛ بقرينة سياقِ الخطابِ بالاستفهام، ولأنَّ الغرضَ إقامةُ الحُجَّة على عابديها، فهم المقصودونَ بالخطاب، ونكتتُه الإعراضُ عنهم وتنزيلُهم منزلةَ الغُيَّبِ؛ بعد تبوير شُبُهاتِهم، وهذا أوْلى مِن عوْد الضّمير على الشُّركاء؛ لأنَّ شركاءَهم أصنامٌ جماديَّة[1]، وفي الالتفاتِ انصرافٌ عنهم مُؤذِنٌ بالغضبِ عليهم؛ ففيه تحقيقٌ لإسنادِ الإيتاءِ إلى ضميرِ العظمة.

نكتةُ استعمالِ لفظ الكتاب:

القرآن هو واجبُ الاتِّباع لا الشِّركُ كثيرُ الأتباع

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿كِتَٰبًا﴾ في قوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾، وهو مناطُ الشُّبْهةِ الثّالثةِ المُفْترَضةِ، فحالُ المشركينَ في الثَّبات على باطلِهم كحالِ من آتاه الله كتابًا يأخذُ عنه حُججَه وبراهينَه[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مَن آتاه الله تعالى كتابًا كان صاحبَ الكلمةِ الفصل، والدّيانةِ الأصل، والحقِّ المبين، والصّدقِ المُستبين، فهي تعريضٌ بأنَّ القرآنَ الذي آتاه الله محمَّدًا ﷺ هو الحقُّ الذي لا محيدَ عنه، وهو الواجبُ الاتِّباعِ دون الباطلِ كثيرِ الأتباع.

دلالةُ إفرادِ الكتاب وتنكيرِه:

المشركون أَوهى مـن أن ينـالـوا كتابًا وأوهنُ من اتّباعِ مكتوبٍ

أُفرد ذكرُ الكتاب في قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ فلم يقل: (كُتُبًا)؛ لحقارةِ شأنِ ادِّعاءِ ألوهيَّة الأصنام؛ فهي لا تحتاجُ إلى كُتُب، وجاء منكّرًا للدّلالة على النّوعية، أي: آتيناهم نوعًا مِنَ الكتب عجيبًا؛ ألا ترى إلى قوله بعده: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ على قراءةٍ، و﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَٰتٍ مِّنْهُ﴾ على قراءة أُخْرَى، هذا على مراعاة حالِ المشركين، وأمّا على مراعاةِ الاستفهام الإنكاريِّ فالتّنكيرُ للإعدام

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 203، وعبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 313.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 233.

والتّحقير، ولا يكفي أن يُقال: للتّحقير فقط؛ لأنَّ التّحقيرَ صفةٌ لموصوفٍ موجودٍ، وليس لدى المشركين كتابٌ مِنَ اللّه قطُّ[1].

نوعُ (الفاء) ودلالتُها:

نفيُ إيتاءِ الكتابِ نفيٌ لبيِّناتِه

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ إمّا سببيّةٌ؛ وما بعدَها مُسبَّبٌ عن مجموعِ ما قبلها؛ وهذا يَعْني أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ مُلاحَظٌ في بناءِ المعطوفِ؛ فاستحضارُه يُعينُ على الإحسانِ في فِقْهِه، وهذه الفاءُ تدلُّ على أنَّ ما بعدها داخلٌ في الإنكارِ كالذي قبلها؛ فالمرادُ نفيُ أنْ يكونَ قد آتاهم اللّه كتابا فيه بيِّنةٌ على ما يريدونَ، فلا كتابَ ولا بيِّنةَ؛ والمُقيَّدُ والقيدُ منفيّانِ جميعًا.

نكتةُ الجملةِ الاسميَّة:

قـوّةُ الاسميَّة تحكي تشبُّثَ المشركينَ بعقيدتِهم الضّالَّة

بُنيتِ الجملةُ الاسميَّة بتقديم ضمير المشركين (هم) في قوله: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾، ولو قيل: فكانوا على بيّنةٍ منه، ونَحْوُ ذلكَ كانت فعليَّةً، ولمّا كانتِ البيِّنةُ مِن شأنِها أنْ تَجْعَلَ صاحِبَها قويًّا مُسْتَمْسِكًا برأْيِه؛ ناسَبَ ذلك أنْ تخرُج في ثوبِ الاسميَّةِ.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاء:

مَن تمكَّنَ مِن فَهْمِ شيءٍ تمسَّكَ به

جاء استعمالُ حرف ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ وهو للاستعلاء الحِسّيِّ، ومدخولُها هنا هو البيِّنة المستفادةُ مِمّا في الكتابِ، فدخولُ ﴿عَلَىٰ﴾ عليها ليس على الحقيقة، وإنَّما على تشبيهِ البيِّنة بشيءٍ حسّيٍّ مُستعلىً عليه؛ على طريق الاستعارة المكنيَّة، وحرف ﴿عَلَىٰ﴾ قرينتُه التّخييليّةُ، وبلاغةُ الاستعارة تكمُن في الدّلالة على غايةِ تمكُّن المُشركين مِنَ الدّليلِ على ألوهيَّة أصنامهم، وفي هذا مِنَ التَّهكُّم بهم وبأصنامِهم ما فيه.

نكتةُ الإقامةِ مقامَ الموصوف والتّنكير:

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ لفظ ﴿بَيِّنَتٍ﴾ في قوله: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ

(1) عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 313.

ظهَر للمشركينَ الضَّلالُ ظهورَ الحقِّ للمؤمنين

﴿بَيِّنَتٍ﴾، والبيِّنةُ هي الدّلالةُ الواضحةُ؛ حسّيَّةً كانت أو معقولةً[1]، وهي صفةٌ موصوفٍ محذوفٍ، أي: حُجَّةٍ بيِّنة، أو دلالةٍ بيِّنةٍ؛ كما قال تعالى: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ﴾ [البقرة: 211]، فحَذفُ الموصوفِ؛ إشعارٌ بكمالِ اتِّصافِه بالبيِّنة؛ حتَّى صار يُعْرَفُ بها، وتُطْلَقُ عليه، وقد جاءت كلمةُ ﴿بَيِّنَتٍ﴾؛ نكرةً للإشارةِ إلى عظمتها وفخامتِها؛ فلمّا نُفيَ الكتابُ نُفيت جميعُ المعاني المُلازمة له، وبقي معنى التَّهكُّم بالمشركين.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

في القراءتَيْنِ احتفالٌ بالبيِّنةِ؛ إبلاغًا في بيانِ قبحِ ضَلالِ المشركين

قرأ نافعٌ وابنُ عامر والكسائيُّ وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وأبو جعفر: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٖ﴾ بصيغةِ الجمع، وقرأه ابنُ كثير وأبو عمرو وحمزةُ وحفصٌ عن عاصم: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٖ﴾ بصيغة الإفراد، فأمّا قراءةُ الجمع فوجُهها: أنَّ شأنَ الكتاب أنْ يشتملَ على أحكام عديدةٍ، ومواعظَ مُكرَّرةٍ؛ ليتقرَّرَ المرادُ من إيتاءِ الكتب؛ مِنَ الآيةِ القاطعةِ؛ بحيثُ لا تحتملُ تأويلًا ولا مبالغةً ولا نحوَها على حدِّ قولِ علماءِ (أصول الفقه) في دلالة الأخبار المتواترةِ دلالةٌ دلالةً قطعيَّةً، وأمّا قراءةُ الإفرادِ: فالمرادُ منها جنسُ البيِّنة الصّادقُ بأفرادٍ كثيرةٍ[2]، وفي الجمع: إيماءٌ إلى أنَّ الشِّرك خطيرٌ لا بُدَّ فيه من تعاضُدِ الدّلائل، وهو ضَرْبٌ مِنَ التَّهكُّم[3].

كما أنّ في الجمعِ: دلالةَ تعظيمِ الحُجَّة التي جاءتْهم في الكتابِ الذي أوتوه من عندِ اللّهِ؛ فما اهتدوا به من هذا الكتابِ إلى أنَّ أصنامهم آلهةٌ من شأنها أنْ تُدْعَى وتُعْبَدَ من دونِ اللّهِ شيءٌ عظيمٌ في بابِه، وفي الإفرادِ: تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ الحُجَّةَ البيِّنةَ مع جلالها

(1) الراغب، المفردات: (بان).

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 352، والدّمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 464، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 326.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 204.

في مقدورِهم فَهْمًا وإفْهامًا، فهم مُتمكِّنون منها؛ تمكُّنَ الإنسانِ مِنَ الشّيءِ القليلِ.

نكتةُ ذكرِ الجارِّ والمجرور:

التَّعريضُ بحالِ مَـن لـم يُـؤتَ كتابًا مـنَ الله تعالى

الجارُّ والمجرور ﴿مِّنْهُ﴾ في قوله: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ صفةٍ للّفظِ: ﴿بَيِّنَتٍ﴾، أي: بينةٍ كائنةٍ منه، والضَّميرُ فيه راجِعٌ إلى (الكتاب)، ووصفُ البيِّنات أوِ البيّنة - على القراءتين - به؛ للدِّلالة على أنَّ المراد كونُ الكتاب المفروضِ إيتاؤه إيّاهم مُشتملًا على حجَّة لهم تثبتُ إلهيَّةَ الأصنام، وليس مطلقُ كتابٍ يُؤتَونَه أمارةً منَ الله على أنَّه راضٍ منهم بما هُم عليه؛ كدلالة المُعجزات على صدقِ الرَّسول، وليست الخوارقُ ناطقةً بأنَّه صادق، فأُريد: (أآتيناهُم كتابًا ناطقًا مثلَ ما آتينا المسلمينَ القرآنَ)[1].

دلالاتُ الاستفهامِ المُتوالي:

المنعُ طلبُ الدّليل على الدَّعوى

كرَّر النّظمُ الكريم الاستفهامَ عندَ المُحاجَجة للكافرين الَّذين استخلفَهم الله تعالى في الأرض ليعبدوه، فاتَّخذوا أصنامًا يشكرونَها من دونه في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾ ... ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ وذلك بمنتهى الجحود؛ إذ يخلُقُ ويُعبَدُ غيرُه، ويُنعِمُ ويُشكَرُ غيرُه، فتكرَّر الاستفهام الدّالُّ على الإنكار والتّعجيبِ والاستغراب ممّا أقدَموا عليه، والغرضُ من هذا الاستفهام المُطالبةُ بالدَّليل على دَعواهم الألوهيّةَ في الأصنام وما يعبدونَهُ من دون الله تعالى، وهذا ما يسمَّى منعًا في صنعةِ المناظرة، وهو طلبُ الدّليل على الدَّعوى منَ الخصم، مُبيِّنًا له أنَّ الدّليلَ الذي يدلُّ على الألوهيّة منحصرًا منحصرٌ في أنْ يكونَ الإلهُ الحقُّ قادرًا على الخلق منَ الأرض، أوْ أنّ لديه نصيبًا منَ التّدبير في السَّماء، ومَن عجزَ عنِ الخلقِ منَ الأرض فهو عاجزٌ عنِ الثّاني، أوْ أنْ يكون مؤيّدًا بكتابٍ منَ الله، ومَن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 326.

عجزَ عن ذينك فهو عاجزٌ عن إثبات ألوهيَّتِهم بكتابٍ منزّلٍ منَ اللّه تعالى، وبهذا السَّبر للأجوبةِ المُثبتة الألوهيّةَ منَ الدَّليل الحسّيِّ الأوَّل والدّليلِ العقليِّ الثّاني والدّليلِ النّقليِّ الثّالث، يتحقّقُ العجزُ التّامُّ عن إثبات ألوهيَّتِهم بأيِّ دليلٍ مُعتبَر.

معنى ﴿بَلۡ﴾ ودلالتُها:

لفتُ الانتباه إلى دليلِ الشّركِ السّاقطِ الاعتبار

حرفُ ﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للإضراب الإبطاليّ؛ والمعنى: لمّا نفَى القرآنُ أنواعَ الحُجَجِ في إثباتِ إلهيَّة أصنامِهم أضرَب عنه بذكرِ ما حمَلَهُم عليه؛ وهو تغريرُ الأسلافِ للأخلاف، وإضلالُ الرّؤساءِ للأتْباع بأنَّهم شفعاءُ عند اللّه[1].

نوعُ ﴿إِن﴾ ومعناها:

مدارُ حياةِ المُشرك على الوهمِ وانعدامِ الفَهم

حرفُ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ إِن يَعِدُ﴾ نافيةٌ، بمعنى (لا)، ومِن أسرارِ اصطفائها التَّنبيهُ اللّطيف على شكِّ الكافرين في مضمونِ هذه الجملة، أوْ على أنَّهم ينبغي عليهم أنْ يُقلعوا جميعًا عنه؛ وهذا يتأسَّسُ على أنَّ صورة ﴿إِن﴾ النّافية صورةُ (إن) الشَّرطيَّة، وأنَّ ذلك يُعدُّ مِن شجاعةِ البيانِ القرآنيِّ.

دلالةُ لفظِ ﴿يَعِدُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الرُّؤساءُ يتلطَّفون بالأتباعِ في الظّاهر بما فيه الحتفُ في الباطن

وصَفتِ الآيةُ حالَ المشركينَ بأنَّ بعضَهم يعدُ بعضَهم الآخر غرورًا، وهو أنَّ شركاءَهُم تُقرِّبُهم إلى اللّه زلفَى، وأنّها تشفعُ وتضرُّ، فهذا التّعبيرُ يُصَوِّرُ حالَ الرّؤساءِ معَ الأتباعِ، وكيف أنَّهم يوهِمونهم بأنَّ الخيرَ فيما يدعونَهم إليه، وكيف يَعتنون بهم، ويُقرِّبونهم منه، وجيء بفعل المضارع ليحكيَ تجدُّدَ ذلك منهم، واستمرارَه، وهذا غاية الحرصِ منهم على انقيادهم لهم، وبهذا يكونُ أمرُ الشّرك قائمًا على مجرّدِ المواعدةِ بأنَّهم على حقٍّ، وليس الوعدُ والكلامُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 480، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 326.

قادرًا على إثباتِ هذه الدَّعوة الخطيرة، فآلَ أمرُ الشّرك إلى دليلٍ واهٍ، وهو الوعدُ منَ الكُبراء للأتباع بصحَّة ذلك.

نكتةُ استعمالِ مفردةِ (الظُّلم):

المشركونَ ظلموا أتباعَهم وأنفسَهُم

آثرَ النَّظمُ ذكرَ لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في قوله: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ دونَ حذفِه كأنْ يُقال: (بل إنْ يعد بعضُهم بعضًا إلّا غرورًا)؛ جرْيًا على نسَق الغيْبَة والضّمير، ولكن عُدِل عنِ الضّميرِ إلى الاسم الظّاهرِ؛ لإرادةِ وصفِهم بصفة الظُّلم التي هي من لوازم الشِّرك، و(أل) فيه موصولةٌ، وإنّما آثَر النَّظمُ وصفَهم بالظُّلم على صريحِ الشِّرْك؛ لبيانِ علَّة الوعدِ بالغُرور والباطل، وهو ظلمُهم لأنفسِهم ولغيرِهم وهو الأظهرُ في السّياق، وهذا تحريكٌ للأتْباع ليرجعوا عنِ الاقتداءِ بالرّؤساء الظّالمين؛ ففيه تنبيهٌ على الباطل الذي غَرقوا فيه، كما أنَّ تسميتَهم ظالمينَ؛ لأنَّهم تركوا عبادةَ المُستخلِفِ الحقيقيِّ إلى عبادة الوَهْم والطّاغوت.

دلالةُ التّعبير باسمِ الفاعل:

الحِجاجُ للعريقينَ في الخُصومةِ الرّاسخينَ في الباطلِ

جيءَ بوصفِ (الظُّلم) في قوله تعالى: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بصيغةِ اسمِ الفاعل؛ للدّلالةِ على كمالِ اتِّصافِ المُتحدَّثِ عنهم بالظُّلْم، فهم راسخونَ عريقونَ فيه؛ والدَّليلُ على ذلك حِجاجُهُم بكلِّ تلك الاستفهاماتِ السّابقةِ الدّالةِ على الإنكارِ والاستغرابِ والتّعجيبِ مِن شِركِهم، وبالتَّذكيرِ بالنِّعَم قبلها في آية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

دلالةُ استعمالِ لفظ (بعض):

المشركونَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ في أصلِ الكفرِ وتواصُلِه

(البَعضانِ) الواردانِ في قوله تعالى: ﴿إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا﴾ فإنَّ الأوّلَ المضافَ بدلٌ مِن ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بدلَ بعضٍ مِن كلٍّ، وهمُ الرُّؤَساءُ، وإن الثّانيَ مفعولٌ به للفعل ﴿يَعِدُ﴾، وهمُ الأتْباعُ، وهم ظالمون أيضًا في لفظِ الآية، واستعمالُ البعضيَّة يُحقِّقُ هذا ويؤكِّدُه،

مع الإشارةِ إلى الانسجام القويِّ الكائنِ بينَ الرّؤساء والأتباع؛ مِمّا جعَل على أبصارِ الأتباع وبصائرِهم حِجابًا يمنعُهم مِنَ التَّفكيرِ والمُراجعةِ، مِمّا تسبَّبَ في توغُّلِ الرُّؤساء في الشِّرك والعناد؛ إذ قدِ اغترّوا باتِّباعِ غيرِهم لهم؛ ووراءَ ذلك مِنَ المعنى الدّلالةُ على ضعف الجميع، والتّحريكِ للجميع نحوَ إحداث ثورةٍ على النَّفْسِ بإحداثِ ثورةٍ على الغير؛ وذلك بتهييجِ الحميَّة في نفوسِ الأتْباع، وأنَّهم يُعامَلون على أنَّهم دون الرُّؤساء، وأنّهم لن يتحمَّل الرّؤساءُ عنهم وزرَهُم، إلى آخِرِ ما يفيضُ به السّياقُ.

بلاغةُ القصر ونوعُه:

اعتقادُ المشركِ مقلوبٌ في عالمِ الحقائق منكوسٌ

في قوله تعالى: ﴿إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾: قصرُ وعدِ الظّالمين بعضِهم بعضًا على كونه غرورًا؛ قصرًا إضافيًّا قلبيًّا؛ لأنَّ المشركينَ يعتقدونَ عكسَ ذلك، وهو قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، والقصرُ مِن أغراضِه العامَّةِ التّوكيدُ، وداعي التّوكيدِ به هنا "ظنُّهم أنَّ أمورَهُم في غايةِ الإحْكامِ"[1].

نكتةُ استعمالِ مفردةِ ﴿غُرُورًا﴾:

الاغترارُ مسلكُ الفُجّار في طريقِ أهل النّار

لفظُ ﴿غُرُورًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوف، والتّقديرُ: إلّا وعدًا غرورًا، فهو صفة للمستثنى المحذوف[2]، وحُذف الموصوف لمعرفتِه من فعل ﴿يَعِدُ﴾، والغرورُ كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ مِن: مالٍ، وجاهٍ، وشهوةٍ، وشيطانٍ[3]، ووُصِفَ بها وعدُ المُشركين بعضِهم بعضًا؛ للتّنبيه على نقصانِ فِطنتهم؛ لأنَّ مِن أصول معاني هذه المادّةِ النّقصانَ[4]، ففيه تنبيهٌ على ضَعْفِ الرُّؤَساءِ الذينَ يعتمدونَ على الأتْباعِ وحقارتهم، ولو كانَتْ عقيدتُهم صحيحةً لَما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 233.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 327.
(3) الراغب، المفردات: (غ رر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرّ).

اعتمدوا عليهم؛ فإنَّ الحَقَّ حَقٌّ؛ وإنْ لَمْ يَتَّبِعْهُ أحَدٌ، وتَنْبيهٌ على ضعْف الأتباع وهوانِهم على الرُّؤساء، وإنَّما حُذِف الموصوفُ؛ للدّلالةِ على كمال اتِّصافِه بالصّفةِ؛ حتَّى كأنَّه صارَ يُعبَّر بالصّفة عنِ الموصوفِ فنُزِّلا منزلةَ الشَّيء الواحد، وفي اختيارِ كلمة ﴿غُرُورًا﴾ الدّالّةِ على البطلان إشارةٌ إلى أنَّ دليلهم على الشّرك ضعيفٌ لا يقوى، مع أنَّ الأدلّةَ المذكورة في الاستفهام قاطعةٌ ببُطلان شركِهم، وما ذلك إلّا لسوءِ استدلالِهم وشدّةِ ظُلمهم، فاختيارُ وصفِ الوعد بالغرور يكونُ دليلًا على بطلانِ ذلك المعتقَد ببطلانِ دليلِه وعدمِ استقامتِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإراءَةُ والإعلام والإخبارُ:

الإراءةُ سببُ الإعـــلام، والإعـلامُ أخـصُّ مِنَ الإخبارِ

(الإراءة) إنّما تكون بينَ طرفيْن؛ أحدُهما الرّائي، والآخَر المرئيّ، ومدارُها على النَّظَرِ والإبصارِ بالعين، والرُّؤْيةُ مدارُها على ذلك بالعَين أو بالبصيرةِ، وأمّا (الإعلامُ) فإنّما يكونُ بخَلْقِ العِلْمِ الضّروريّ في القلب؛ كما خلق اللّه سبحانه مِن كمالِ العقل والعِلْم بالمشاهدات، وقد يكونُ بنصبِ الأدلّة على الشّيءِ، وأمّا الإخبارُ فهو إظهارُ الخبرِ؛ عُلِم به، أوْ لم يُعلَم، ولا يكونُ مُخبرًا بما يُحدّثُه مِنَ العلم في القلب كما يكونُ مُعلِمًا بذلك[1]، وقد يُتجوّزُ بإحداها عن الأُخرى عندَ إرادةِ المبالغة في العلْم بالشّيء؛ إذِ الإخبارُ يفيدُ علمًا ويكون سببًا له، كما أنَّ الإراءة علمٌ قطعيٌّ لا ينجُمُ إلّا عن دليلٍ وبرهانٍ دالٍّ على العلْم القاطع، فتتحقّقُ الإراءةُ للدّعوةِ المُثبَتةِ، وتكتملُ بالمشاهَدة.

الدُّعاء والنِّداء والعِبادة:

(الدُّعاءُ) كالنِّداء، إلّا أنَّ النّداءَ قد يُقال بـ: (يا، أو أيا) أو نحوِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى)، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 59.

ذلك؛ مِن غير أنْ يُضَمَّ إليه الاسمُ، والدُّعاءُ لا يكادُ يُقال إلّا إذا كان معَه الاسمُ، نحوُ: يا فلان، وقد يُستعمَل أحدُهما في موضِع الآخر؛ قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]، و(النّداءُ): رفْعُ الصّوت وامتدادُه بما له معنًى، والعربيُّ يقول لصاحبه: نادِ معي؛ ليكونَ ذلك أنْدَى لصوتنا، أي: أبعدَ له، والنِّداءُ قد يكونُ بعلامة مِن غير صوتٍ ولا كلام، ولكنْ بإشارةٍ تنبئُ عن معنى (تعالَ)؛ ولذلك لا يُسند النّداءُ إلى اللّه سبحانه، بخلاف الدُّعاء؛ فقد يُسند إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، و(الدُّعاءُ): يكون برفعِ الصّوتِ وخفْضِه؛ يقال: دعوتُه مِن بعيد، ودعوتُ اللّه في نفسي، ولا يُقال: ناديتُه في نفسي، وأمّا (العبادةُ): فهي أبلغُ مِنَ العبوديّة؛ لأنَّ العبوديَّة إظهارُ التَّذَلُّلِ، والعبادةُ غايةُ التَّذَلُّلِ، ولا يستحقُّها إلّا مَن له غايةُ الإفضال؛ وهو اللّه – سبحانه وبحمده –، والعبادةُ ضربان: عبادة بالتّسخير، وعبادة بالاختيارِ؛ فظهر بهذا أنَّ كلًّا مِن (الدّعاء والنّداء) قد يكونُ مِن مظاهرِ العبادةِ التي هي بالاختيار[1].

العبادةُ أعمُّ مِنَ الدُّعاءِ والنِّداءِ

الغُرور والخداع والوهم:

(الغَرورُ): كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ؛ مِن مالٍ، أو جاهٍ، أو شهوةٍ، أو شيطانٍ؛ تأسيسًا على نقصانِ فطنتِه، وخِسَّة همَّتِه، وسفَه رأيِه، والغَرورُ: الإطماعُ في أمرٍ محبوبٍ على نيَّةِ عدم وقوعِه، أو هو إظهارُ الأمر المُضِرِّ في صورة النّافع؛ والغَرور: إيهامٌ يحمل الإنسانَ على فعل ما يضرُّه، وكذلك غرَّ إبليسُ آدمَ؛ ففعلَ آدمُ الأكلَ الضّارَّ له، و(الخِداعُ): إنْزالُ الغير عمّا هو بصدده بأمرٍ يُبْديه على خلاف ما يُخْفيه، والمقصودُ مِن الغرور والخداع قد يتمُّ وقد لا يتمُّ، ويتّفقان

المقصودُ معَ الوَهْمِ يقَع بسرعةٍ، ومعَ الغُرورِ قد يقَع، وقد لا يقَع

(1) الراغب، المفردات: (دعا) و(عبد)، ومعجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري، ص: 535.

في إرادة الشَّرِّ منهما أيضًا، و(الوَهْمُ): وهْمُ القلبِ؛ وقيل: الغَرور: إيهامُ حالِ السُّرور فيما الأمرُ بخلافه في المعلوم، وليس كلُّ وهْم غرورًا؛ لأنّه قد يتوهّمُه مخوّفًا فيحذرُ منه، فلا يقال: غرَّه[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خدع) و(غرّ) و(وهم)، والراغب، المفردات: (خدع)، و(غرر)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 205، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 384.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والأربعون،
سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 47 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-731-00-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 47 : المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-731-00-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0968178 بتاريخ 2025/01/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»